الجاحظ رائد الجغرافية الانسانية

بقلم شارل بلاّ

يخبرنا أصحاب التراجم والفهارس بأنّ الجاحظ خلّف من بين ما خلّفه من مؤلّفاته العديدة كتيّباً وسمه النسّاخ بكتاب الأمصار وعجائب البلدان ويغلب على الظنّ أنّ الورّاقين غفلوا عنه وتركوا انتساخه لعدم فائدته في نظر زبائنهم . حتّى ضاع أكثره ولم يبق منه إلاّ أقلّه وقد حفظ لنا هذا القليل ناسخ متأول الكتاب فأخذ منه ما راقه واختار ما أعجب به فتداول الناس هذه المختارات إلى أن وصلت نسخة منها إلى المتحف البريطاني (رقم ١١٢٩)[1].

ومن المؤكّد أنّ النصّ الكامل كان موجوداً في القرن الرابع الهجري إذ أنّ المسعودي[2] تصفّحه فقال إنّه « في نهاية الحسن وإن كان الرجل (!) لم يسلك البحار ولا أكثر الأمغار ولا تقرّى الممالك والأمصار » ؛ ثمّ حاول المقدّسي[3] أن يستفيد منه فخيّب أمله بحكم عليه قائلاً : « وأما الجاحظ وابن خرداذبه فإنّ كتابيهما مختصران جدّاً لا يحصل منهما كثير فائدة » ؛ مع أنّ ابن حوقل[4] يذهب إلى أنّه « هو كتاب نفيس ... في معرفة الأمصار » .

فهذه آراء متضاربة وأحكام متناقضة لا يعلّل اختلافها إلاّ تفاوت الغايات التي كان المؤلّفون المذكورون يرمون إليها : فجليّ أنّ الكاتب الذي يريد أن يعتمد على ما ألّف قبل زمانه من المؤلّفات لكي يصف البلدان والأمصار وصفاً تقليدياً لا يفيده كتاب الجاحظ « كثير فائدة » لأنّ صاحبنا لا يكترث بالمسافات والمسالك ولا بالملوك والممالك ولا بالأعراض والأطوال ولا بالفراسخ والأميال ، بل يعتني بالخلق الذي يدلّ على خالقه وبالعجائب التي تنمّ عن قدرته تعالى وبالصامت والناطق من الحيوان العائش في الأمصار ونواحيها وبطبيعة الحال يهتمّ أشدّ الاهتمام بأكمل الخليقة وأتمّها : بالعالم « الصغير

١) وقد بلغني اخيراً أن نسخة ثانية موجودة في Emanet Hazinesi باستنبول (رقم ١٣٥٨) ويحتل فيها كتاب الاوطان والبلدان الصفحات ٢٠٠-١٠٠ و(راجع Ramazan Şeşen, *Câhiz'in* : *eserlerinin...* in *Şarkiyat Mecmuası*, VI, (1963), 126, nº 17).

٢) مروج الذهب ، ط. باريس ، ١ : ٢٠٦-٢٠٧ .

٣) أحسن التقاسيم ، ٤ : ٤-٥ .

٤) المسالك والممالك ، ٢٦٦.

سليل العالم الكبير » ؛ فيدرس العالم من خلال الإنسان ويضع أساساً متينة جغرافية مركزة على نظريته الشخصية فيما يربط الكائنات بوسطها من الروابط وفيما تتربة وإنماء من تأثير في كل ما يحيى . فيتسع خاصة في « عمل البلدان وتصرف الأزمان وآثارها في الصور والأخلاق وفي الشمائل والآداب وفي اللغات والشيات والسمات والهيئات وفي المكاسب والصناعات . على ما دبر الله تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة والتدابير العجيبة » . ولذلك يتطرق لخصائص البلدان واختلافها ويثني على الله الذي « جعل بعض الاختلاف سبباً للائتلاف » .

وإلى جانب ذلك يدرس ما للمجتمع البشري من الأنظمة السياسية والدينية والاقتصادية . وتدل ملاحظاته على فطنته وقدرته على مجاوزة حد البسيط إلى المركب والمفصل إلى المجمل .

فلا يرتفع دفعة واحدة إلى ما نسميه الآن بالجغرافية الإنسانية ولكنه يقترب إليها شيئاً فشيئاً لأنه يتأمل شأن البشر فيطرح على بساط البحث مسألة الإنسان في العالم ويتدرج إلى حلها وإلى استنباط قواعد بل نواميس إلاهية عامة تساعد على إدراك ماهية الإنسان من خلال اختلاف وجوهه ؛ ويجدر بنا أن نقول إنه رسم لغيره الخطوط الرئيسية اللازم اتباعها لتحقيق برنامجه الواسع الذي يتضمن البحث العميق عن جميع مظاهر الحياة وإنه أشار إلى المنهاج الواجب تطبيقه على من يريد أن يعمم علم الجغرافية ويوسع نطاقها بإدخاله فيما تسميه العرب بالأدب أو بادخال الادب فيها وإن لم تمت إليه بسبب في ظاهر الأمر .

وأعجب العجب أن تأثير الجاحظ في الجغرافية لم يلبث أن تجسم فظهر جلياً في الرواية الثانية من كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه — وهو معاصره — ثم في معظم كتب الجغرافية .

ولعل القارئ الفاضل لن يوافقنا على هذا الرأي الشاذ لأن النصوص المحفوظة لا تؤكده تمام التوكيد ولكن ينبغي ألا ينسى أن المختارات التي تنشرها اختارها « حاطبُ ليل » لم يكن غرضه يشبه غرضنا ولا يقربه ؛ فأسقط معظم ما له أهمية بالنسبة إلى بقايانا ، غير أن القليل الذي حفظه لنا وفقرات عديدة من كتب الجاحظ لا يمكننا أن نلم بها الآن تكفي دليلاً على صحة ما قلنا وشاهداً على حقيقة ما ادعينا .

CH. PELLAT

من كتاب الأمصار وعجائب البلدان .

زيّنك الله بالتقوى وكفاك المهمّ من أمر الآخرة والأولى وأثلج صدرك باليقين وأعزّك بالقناعة وختم لك بالسعادة وجعلك من الشاكرين .

سألتَ — أبقاك الله — أن أكتب لك كتاباً في تداخُل البلدان وكيف قناعة النفس بالأوطان وما في نزوعها من التنقّل والتنقص[1] وما في الطلب من علم التجارب والعقل ؛ وذكرتَ أنّ طول المُقام من أسباب الفقر كما أنّ الحركة من أسباب اليُسر ؛ وذكرتَ قول القائل : « الناس بأزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم.»[2] ؛ ونسيتَ — أبقاك الله — عمَلَ البلدان وتصرُّفَ الأزمان وآثارها في الصوَر والأخلاق وفي الشمائل والآداب وفي اللغات والشهوات والحِسَم والهيئات وفي المكاسب والصناعات ؛ على ما دبّر الله تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة والتدابير العجيبة ؛ فسبحان مَن جعل بعض الاختلاف سبباً للائتلاف وجعل الشكّ داعيةً إلى اليقين ؛ وسبحان مَن عرّفنا ما في الحَيْرة من الذلّة وما في الشكّ من الوحشة وما في اليقين من العزّ وما في الإخلاص من الأنس .

وقلتَ : ابدأ لي بالشام ومصر وفصلِ[3] ما بينهما وتحصيل جمالها ؛ وذكرتَ أنّ ذلك سيجرّ العراق والحجاز والنجود[4] والأغوار وذكرَ القُرى والأمصار والبراري والبحار .

واعلم — أبقاك الله — أنّا متى قدّمنا ذكرَ المؤخّر وأخّرنا ذكر المقدّم فَسَدَ النظامُ وذهبت المراتب ؛ ولستُ أرى أن أقدّم شيئاً من ذكر القرى على ذكر أمّ جميع القرى ؛ وأولى الأمور بنا ذكرُ خصال مكّة ثمّ خصال المدينة ؛ ولولا ما يجب من تقديم ما قدّم الله وتأخير ما أخّر لكان الغالب على النفوس ذكر الأوطان وموقعها من قلب الإنسان ؛ وقد قال الأوّل :[5] « عمّر

١) خط : والنقص .
٢) هو المثل الثالث من « أمثال علي بن أبي طالب » ؛ راجع أيضاً البيان والتبيين ، ٣ : ٢٩٤ .
٣) خط : فضل .
٤) خط : والحجيد .
٥) هذا القول منسوب إلى عمر بن الخطاب في رسائل الجاحظ ، ط. هارون ، ٢ : ٣٨٩ ، وإلى « للعبدي » : ١ : ٦٤ .

الله البلدان بحُبّ الأوطان » ؛ وقال ابن الزُبَيْر[١] : « ليس الناس[٢] بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم » ؛ ولولا ما من الله به على كلّ جيل منهم من الترغيب في كلّ ما تحت أيديهم وتزيين كلّ ما اشتملت عليه تُدرتهم وكان ذلك مفوّضاً إلى العقول وإلى اختيارات النفوس . لَمَا[٣] سكن أهل الغياض والأدغال في الغَيْض[٤] والشَّقّ ولما سكنوا مع البعوض والفَسَج[٥] ولما سكن سُكّان التلاع[٦] في تُلَل الجبال ولما أقام أصحاب البراري مع الذئاب والأدعي وحيث مَن عَزّ بَزّ[٧] ولما[٨] أقام أهل الأطراف في الخانوف والتغرير[٩] ولما رضي أهل الغيران وبطون الأودية بتلك المساكن ولانتسى[١٠] الجميع السُكنى في الواسطة وفي بيضة العرب وفي دار الأمن والسَعة ؛ وكذلك كانت تكون أحوالهم في اختيار المكاسب والصناعات وفي[١١] اختيار الأسماء والشيات ؛ ولاختاروا[١٢] التخطير على الحقير والكبير على الصغير ؛ ألا تراهم قد اختاروا ما هو أقبح على ما هو أحسن من الأسماء والصناعات ومن المنازل والديارات ؛ من غير أن يكونوا خُدعوا واستُكرهوا ؟

ولو اجتمعوا على اختيار ما هو أرفع ورفض ما هو أوضع من اسم أو كُنية ومن[١٣] تجارة وصناعة ومن شيمة وهمّة لذهبت المُعاملات وبطل التمييز ولوقع التجاذُب ثمّ التغالُب ثمّ التحارُب ؛ ولصاروا[١٤] عرضاً للتفاني وأكلةً

١) راجع رسائل الجاحظ ، ط. هارون ، ١ : ٦٤ ؛ والحيوان ، ٣ : ٢٢٧ .
٢) خط : الناس .
٣) خط : ما .
٤) خط : الغسق ؛ والغسق : والرطوبة ؛ الشق : الندى مع سكون الريح .
٥) الفسج : الذباب الصغير .
٦) خط : الفلاح .
٧) خط : عزيز ؛ ومعنى هذه العبارة أن من غلب أخذ السلب (بشحتين)؛ اي: حيث يسود حكم الاقوى .
٨) خط : ولا .
٩) خط : والتقرير .
١٠) خط : ولا التمس .
١١) خط : في .
١٢) خط : ولا اختاروا .
١٣) خط : وفي .
١٤) خط : ولفاروا .

للبوار ؛ فالحمد لله أكثرَ الحمد وأطيبَه على نِعَمه : ما ظهر منها وما بطن وما جُهل منها وما عُلم ! ذكر الله تعالى الديار فخبَّر عن موقعها من قلوب عباده ، فقال : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾[1] ، فسوَّى بين موقع قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم ؛ وقال : ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[2] . فسوَّى بين بين الخروج من ديارهم وبين موقع هلاك أبنائهم .

[.....] فقسم الله تعالى المصالح بين المُقام والظَّعن وبين الغُربة والحنين الوطن وبين ما هو أربح وأرفع حين جعل مجاريَ الأرزاق مع الحركة والتقلب وأكثر من ذلك ما كان مع طول الاغتراب والبُعد في المسافة ليُنيلك الأمور ويُمكن الاختبار ويُحسن الاختيار ؛ والعقل المولود متناهي الحدود وعقلُ التجارب لا يوقف منه على حدّ ؛ ألا ترى أنَّ الله لم يجعل إلف الوطن عليهم مفترَضاً وقيْداً مُصمتاً[3] ولم يجعل كفايتهم مقصورةً عليهم محتبسةً[4] ثم في أوطانهم ؟ ألا تراه يقول : ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[5] ، فقسم الحاجات فجعل أكثرها في البُعد ؟ وقال عزّ ذكره : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ[6] الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾[7] ؛ فأخرج الكلام والإطلاق على مخرج العموم فلم يخصّ أرضاً دون أرض ولا قُرباً دون بُعد .

[.....] ونحن وإن أطنبنا في ذكر جملة القول في الوطن وما يتصل في الطبائع ، فإنّا لم نذكر خصال بلدةٍ بعينها فنكون قد خالفنّا إلى تقديم المؤخَّر

1) سورة النساء ، ٤ : ٦٦ ؛ انظر نحو هذا في الحيوان ، ٣ : ٢٢٨ والرسائل ، ط. هارون ، ٢ : ٣٨٩ .
2) سورة البقرة ، ٢ : ٢٤٦ .
3) مصمتٌ : متين لا فرجة فيه .
4) خطّ : عتبة .
5) سورة المزمل ، ٧٣ : ٢٠ .
6) خطّ : قضيّ .
7) سورة الجمعة ، ٦٢ : ٦٠ .

وتأخير المقدَّم ، قالوا : ولم نجهل ولم ننكر[1] أنّ نفس الإلف تكون من صلاح الطبيعة حتى إنّ أصحاب الكلاب[2] ليجعلون [ن] هذا من مذاخرها على جميع ما يُعاشر الناس في دورهم من أصناف الطير وذوات الأربع ، وذلك أنّ صاحب المنزل إذا هجر[3] منزلَه واختار غيرَه لم يتبعه فرَس ولا بغل ولا حمار ولا ديك ولا دجاجة ولا حمامة ولا حمام ولا هرّ ولا هرّة ولا شاة ولا عصفور — فإنّ العصافير تألف دور الناس ولا تكاد تقيم فيها إذا خرجوا منها ، والخطاطيف تقطع إليها[4] لتُقيم فيها إلى أوان حاجتها إلى الرجوع إلى أوطانها ، وليس شيءٌ من هذه الأنواع ممّا يتوافى الدور باجتلابهم لها[5] . ولا ما يتوافى دورهم ممّا ينزع إليهم أحنّ من الكلب ، فإنّه يُؤثر [صاحبه][6] على وطنه ويَحنّ ممّن يغشاه ؛ فذكروا الكلب بهذا الخُلق الذي تفرّد [به] دون جميع الحيوان[7] ؛ وقالوا في وجه آخر : أكرمُ العصافير[8] أشدّها ولَهاً على[9] أولادها وألزمُ الإبل أحنّها إلى أعطانها[10] ؛ وأكرم الأقلاء أشدّها ملازمةً لأمّهاتها وخير الناس آلفُهم للناس .

❀

[.....] وقلتم : خبّرونا عن الخصال التي بانت بها قُريش عن جميع الناس ، وأنا أعلم أنّك لم تُرد هذا وإنّما أردتَ الخصال التي بانت بها قريش عن[11] سائر العرب ، كما ذكرنا في الكتاب الأوّل[12] الخصال التي بانت بها العرب عن العجم[13] ، لأنّ قريشاً والعرب قد يستَوُون في مناقب كثيرة : قد

١) خط : تذكر .
٢) خط : الكلا ؛ راجع الحيوان ، ٢ : ١٧٧ الخ .
٣) خط : هجم .
٤) خط : البهم .
٥) اي : لان الناس يجتلبونها ؛ في « لها » يعود الضمير الى الانواع .
٦) خط : يؤثره .
٧) راجع كتاب الحيوان ، ٣ : ٣٣٢ ، حيث يقول الجاحظ إن الكلب لا يرحل مع الانسان .
٨) العصافير جمع العصفة وهي الناقة الغزيرة اللبن .
٩) خط : الى .
١٠) خط : اعطانها ؛ والعطن : المناخ حول المورد .
١١) خط : من .
١٢) الاول : اي السابق .
١٣) يشير الجاحظ الى كتابه المفقود في العرب والعجم ؛ راجع الحيوان ، ١ : ٥ .

يلتقي في العرب جواد المبرّز[1] وكذلك الحليم والشجاع حتى يأتي على خصال جمة ؛ ولكنّا نريد الخصائص التي في قريش دون العرب .

فمن ذلك أنّا لم نرَ قُرَشيّاً النسب إلى قبيلة من قبائل العرب . وقد رأيت في قبائل[2] العرب الأشراف رجالاً — إلى الساعة — ينتسبون إلى[3] قريش . كنحو الذي وجد في بني مُرّة بن عوف[4] . والذي وجدنا من ذلك في بني سُلَيم[5] وفي خُزاعة[6] وفي قبائل شريفة .

ومما بانت [به] قريش أنّها لم تلد في الجاهلية ولداً [مجنوناً][7] قطّ ؛ ولقد أخذ ذلك منهم سُكّان الطائف لقُرب الجوار وبعض المصاهرة . ولأنّهم كانوا حُسّاً[8] وقريش حُمْسُهم[9] .

ومما[10] بانت به قريش عن[11] سائر العرب أنّ الله تعالى جاء بالإسلام وليس في أيدي جميع العرب نسبة من جميع نساء قريش ؛ ولا وجدوا في جميع أيدي العرب ولداً من امرأة من قريش .

ومما[12] بانت به قريش عن[13] سائر العرب أنّها لم تكن تزوّج أحداً من أشراف العرب إلاّ على أن يتحمّس[14] ؛ وكانوا[15] يزوّجون [الحُمْسيّ][16] من

---

١) خط : لمبرز .
٢) خط : كبائر .
٣) خط : في .
٤) راجع السيرة : ١ : ٩٩ .
٥) راجع فهرس السيرة .
٦) راجع التربيع والتدوير : ١٩ ؛ ولسان العرب : مادة حمس .
٧) سقطت هذه الكلمة من الاصل ؛ والتكملة عن التربيع والتدوير حيث جاء (ص ٣١) : « ... لم يولد صبي قطّ في العرب مجنونا ، فخص هنا قريشا بهذه الخصلة .
٨) الحُمس : هم من سكان مكة قبل الاسلام من كان يتميز من غيره في بعض المناسك ؛ راجع لسان العرب : مادة حمس ، والسيرة : ١ : ١٩٩ .
٩) حمسهم : اي جعلهم من الحمس .
١٠) خط : وما .
١١) خط : من .
١٢) خط : وما .
١٣) خط : من .
١٤) يتحمس : اي : يكون أو يصير من الحمس .
١٥) اي : القرشيون .
١٦) تكملة يقتضيها السياق .

غير أن يُشترط عليهم . وهم[1] : عامر بن صَعْصَعة[2] وثَقيف[3] وخُزاعة[4] وحارث بن كعب[5] ؛ وكانوا دَيّانين وكذلك تركوا الغزوَ ليسَ فيه من الغَصْب والقسم[6] واستحلال الأموال والفروج . ومن العجب أنّهم مع تركهم الغزوَ كانوا غزواً[7] مثل أيّام الفِجار[8] وذات كَهف[9] ؛ ألا ترى أنّهم عند بُنيان الكعبة قال رؤساؤهم : « ولا تُخرجوا في نفقاتكم على هذا البيت إلاّ من صَدُقات نِسائكم وميراث آبائكم »[10] . تزهدوا مالاً لم يكسبوه ولا يتكثّرون أنّه لم يدخله من الحَرام شيء .

ومن العجب أنّ كسبهم كان قليلاً من قِبَل تركهم الغزوَ [و] مالوا إلى الإيلاف[11] والجِياد[12] . لم يعتَرِهم من بُخل التجّار قليل ولا كثير . والبخل خلقة في الطُّبّاخ ؛ فأعضّوا الشعراء كما يُعضي الملوك وقَرَوا الأضياف ووصلوا الأرحام وقاموا بنوائب زوّار البيت ؛ فكان أحدهم يَحيس الحَيْسة[13] في الأنطاع[14] فيأكل منها القائم والقاعد والراجل[15] والراكب . وأطعموا بَدَلَ الحيس الثالوذج[16] ؛ ألا ترى أميّة بن أبي الصلت يقول ويذكر عبد الله بن

---

١) خط : وهي .
٢) راجع لسان العرب ، مادة حس ؛ ؛ المحبر لابن حبيب ، ١٧٨ .
٣) لم نذكر ثقيف من قبائل الحمس الا في المحبر : ص ١٧٨ .
٤) راجع لسان العرب ، مادة حس ؛ المحبر ، ١٧٨ .
٥) كذا في الأصل ، والصواب : الحارث بن عبد مناة بن كنانة ؛ راجع المحبر ، ١٧٨–١٧٩ حيث يذكر ابن حبيب جميع قبائل الحمس .
٦) خط : التقسم .
٧) خط : اغزوا .
٨) خط : الفخار ؛ ايام الفجار أربعة فحضرت قريش الثاني والرابع منها ؛ راجع الميداني ، ٢ : ٢٩٦–٢٩٧ ؛ والسيرة ، ١ : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٠١ ، ٥٤٠ ؛ الخ .
٩) لم اجد لهذا اليوم ذكرا في المراجع العادية .
١٠) انظر مختلف الروايات في السيرة ، ١ : ١٩٤ .
١١) في مسألة الايلاف راجع مقالة محمد حميد الله في *Mélanges Louis Massignon* ، ٣ : ٣٠١–٣١١ .
١٢) الجياد هنا : الاجتهاد .
١٣) الحيسة : تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن شديداً .
١٤) الانطاع جمع النطع بالكسر ، وهو البساط من الجلد .
١٥) خط : والداخل .
١٦) الفالوذ او الثالوذج : حلواء تعمل من دقيق وعسل وماء .

جُدْعان[1] [وافر][2] :

له داعٍ بمكّةَ مُشْمَعِلٌ[3] وداعٍ حيثُ يُنْحَتُ فوق دارتِه يُنادي

إلى رُدُحٍ[4] من الشِّيزَى[5] مِلاءٍ لُبابَ البُرِّ[6] يُلْبَكُ بالشِّهادِ[7]

فلباب البرّ هذا هو[8] النشا . والشهاد يعني به العسل ؛ ألا ترى أنّ عُمر بن الخطّاب يقول : « أتروني لا أعرف طيّب الطعام : لباب البرّ بصغار السِّعْزَى[9] » . يعني خبز الخُوَّارى[10] بصغار الجِداء[11] .

ولقد مدحتهم الشعراء كما يُمدح الملوك ومدحتهم الفرسان والأشراف وأخذوا جوائزهم . منهم دُرَيْد بن الصِّمّة وأميّة بن أبي الصَّلْت .

ومن خصالهم أنّهم لم يشاركوا العرب والأعراب في شيء من جَنَائبهم وشَظَف شهواتهم . وكانوا لا يأكلون الضَّباب ولا شيئاً من الحشرات ؛ ألا ترى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بضبّ فقال : « ليس من طعام قومي »[12] ؟ لأنّهم لم يكونوا يَحْرِشون الضباب ويصيدون اليرابيع ويأكلون[13] القنافذ ؛ أصحاب الخَيْر[14] والخَمير وخُبز التنانير .

وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب بيْدَ أني من قريش ونشأتُ في بني سعْد بن بكر » ؛ وذلك أنّ جميع قبائل العرب إنّما

---

١) خط : جذعان ؛ وعبدالله بن جدعان كان من اعيان مكة قبيل الاسلام ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية ؛ ودائرة البستاني .

٢) البيان في البيان والتبيين (١ : ١٧) ولسان العرب (مادة شعل ومادة شيز ومادة شهد) غير أن ثانيها منسوب إما الى عبدالله بن الزبعرى (مادة شيز) . وإما الى امية (مادة شهد) .

٣) مشعل : مبادر في الطلب .

٤) رواية اللسان والبيان : وآخر .

٥) خط : روح ؛ الروح جمع الرداح بالفتح : القدر الواسعة او الجفنة العظيمة .

٦) الشيزى : شجر تعمل منه الجفان ؛ والجفان بعينها .

٧) لباب البر : ضرب مختار من خالص الحنطة ؛ أما النشا فهو النشاستج .

٨) خط : هو هذا .

٩) راجع البخلاء ؛ ط الجنجري ، ١٨٥ .

١٠) الخوارى : الخلص النقيّ .

١١) خط : الجدى .

١٢) روي انه قال : « كلوه فانه حلال ولكنه ليس من طعامي » ؛ راجع للنهيري ، مادة ضب .

١٣) يأكلون اي يشوون في الرماد الحار .

١٤) خط : الشعر .

كانت القبيلة لا تكاد ترى وتسمع إلاّ من قبيلتها ورجالها . فليس عندهم إلاّ قبيل[١] ولحن من البيان والأدب والزّي والأخلاق والشمائل والخِلم والنجدة والمعرفة إلاّ في القَرْط[٢] . وكانت العرب قاطبة[٣] ترِدُ مكّة أيّام المَوْسِم وترد أسواق عُكاظ وذا المَجاز وتَقيم هنالك الأيّام الطِوال . فتعرف قريش لاجتماع أخلاق[٤] [م] ثم [من] الشمائل والألفاظ والعقول والأحلام : وهي وادعة[٥] : وذلك قائم لها دائم عندها في كلّ عام : تملك عليهم فتقسمهم[٦] : فتكون غَطَفان لمُغيرة[٧] وبنو عامر لكذا وتميم لكذا : تعدّهم[٨] المناسك وتَرِد جميع شُعُبهم[٩] .

[.....] وفتح مكّة يسمّى فتح الفتوح ؛ وهو[١٠] بيت الله وأهله وحُجّاجه زُوّار الله . وهو البيت العتيق والبيت الحرام وفيه الحِجْر[١١] والحَجَر الأسود وله زَمْزَم وهو زمزمة جبريل — صلوات الله عليه — ومَقام إبراهيم ؛ وماء زمزم [وهو] لِمَا شُرِب له العاكفُ فيه والبادي[١٢] سواء ؛ وبسبب كرامته أرسل الله طيرًا أبابيلَ وحجارة السِّجّيل ؛ وأهله حُمْس ولَقاح[١٣] لا يؤدّون إتاوة . وفيه السِّقاية[١٤] ودار النَّدوة والرِّفادة[١٥] والسِّدانة[١٦] ؛ قال : وأقسم الله

١) خط : عنه قبيل ؛ والقبيل : الجهة والشكل .
٢) الا في القرط : الا في الشاذ .
٣) خط : قاطبة .
٤) الاخلاق هنا جمع الخلق اي الشيم .
٥) خط : وداعة ؛ والمراد بوادعة : دون ان تتحرك ، بلا كد .
٦) خط : فيقسمهم .
٧) لمغيرة ، اي : لبني المغيرة .
٨) خط : تعلمها .
٩) خط : شابا .
١٠) يظهر ان هذا الضمير يعود الى كلمة قد سقطت ولعلها : الحرم أو البيت .
١١) الحجر : قسم من الحائط الدائر بالكعبة من جهة الشمال .
١٢) خط : ابياد ؛ يريد : العاكف والبادي سواء في الشفاء بماء زمزم ؛ راجع الحيوان ، ٥ : ١٤٨ .
١٣) خط : لقاح ؛ واللقاح : الفحول الذين لا يدينون للملوك .
١٤) اي سقاية الحجاج وكانت لبني هاشم .
١٥) الرفادة : ما ترافد به قريش من المال لتشترى به للحجاج طعاما وشرابا ؛ وكانت لبني هاشم .
١٦) السدانة : خدمة الكعبة ، وكانت لبني عبد الدار .

تعالى به فقال[1] : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[2] وقوله — جلّ ذكره — : ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ أي: أقسم وإنّما قوله ﴿لا﴾ في هذا الموضع صلةٌ : وليس على معنى « لا » الذي هو خلاف « نعم » ؛ وقالوا : ولو كان قوله : ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[3] يراد به تقادُم البنيان وما تعاوَده[4] من كرور الزمان لم يكن فضله على سائر البلدان [عظيماً] لأنّ الدنيا لم تَخلُ من بيت ودار وسكّان وبنيان ؛ وقد مرّت الأيّام على مصر وحرّان والحيرة والسوس الأقصى وأشباه ذلك ؛ فجعل البيت العتيق صفةً له ؛ ولو كان ذهب إلى ما يعتق . كان من قَبْل أن يعتُق وتمرّ عليه الأزمنة ليس بعتيق ؛ وهذا الاسم قد أُطلق له إطلاقاً : فاسمه « البيت العتيق » كما أنّ اسمه « بيت الله » ؛ ومَن زعم أنّ الله تعالى حرّمه يومَ خلَق السموات والأرض ؛ فقولُنا هذا مصدّق ؛ ومَن زعم أنّه إنّما صار حراماً مُذ حرّمه إبراهيم كأنّه[5] قد زعم أنّه قد كان ولا يقال له « عتيق » ولا « حرام » ؛ قالوا : ومّما يصدّق تأويلَنا أنّه لم يُعرف إلاّ وهو لتّاح ولا أدّى أهله إتاوةً قطّ[6] ولا وطِئَتْه الملوك بالتسليك ؛ إنّ سابور ذا الاكتاف[7] وبُخْت نصّر وأبا يكْسُوم[8] وغيرَهم قد أتوه ، فحالَ الله تعالى دونه : فتلك عادةٌ فيه وسُنّة جارية له ؛ ولولا أنّ تُبَّعاً[9] أتاه حاجّاً على جهة التعظيم والتديّن بالطواف فحجّه وطاف به وكساه الوصائل[10] ؛ لأخرجه الله منه ؛ وحجّه بعضُ ملوك غسّان ولَخْم — وهم نصارى — تعظيماً له ولِمَا جعل الله له في القلوب .

---

١) خط : بها قال .
٢) سورة البلد ، ٩٠ : ١-٢ .
٣) سورة الروم ، ٢٢ : ٢٩ .
٤) تعاوده ، أي : اعاد لكر عليه .
٥) خط : كان .
٦) خط : فقط .
٧) سابور ذو الاكتاف هو سابور الثاني ابن هرمز ، من ملوك الساسانية ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .
٨) أبو يكسوم هو أبرهة صاحب الفيل .
٩) تبع ، ملك اليمن ، راجع السيرة ، ١ : ٢٥ فيما يخص حج تبع البيت .
١٠) الوصائل جمع الوصيلة وهي ثوب يمان مخطط .

والعتيق يكون [عتيقاً][1] من رقّ العبودية كالعبد يُعتقه مولاه . ويكون عتيقاً من النار كالتائب من الكبائر ؛ وكالرجل يدعو إلى الإيمان فيُستجاب له ويتعلّم[2] ناسٌ على يده فيُسمّى[3] أيضاً عُتقاوه ؛ ويكون الرجل عتيقاً من عتيق الوجه . وربّما كان عتيقاً كما يقال للفرس (عتيق) وليس ببجين ولا مُقْرِف[4] . وقد سُمّي أبو بكر بن أبي قُحافة — رضوان الله عليه — (عتيقاً) من طريق عتيق الوجه ومن طريق أنّهم طلبوا المثالب والعيوب التي كانت تكون في الأمّيات والآباء فلم يجدوها[5] . فقالوا : ما هذا إلاّ عتيق .

[.....] قد قلنا في الخصال التي بانت بها قريش دون العرب ونحن ذاكرون — وبالله التوفيق — الخصال التي بانت بها بنو هاشم دون قريش[6] :

فأوّل ذلك النبوّة التي هي [أكبر] خصال جماع الخير وأعلاها وأفضلها وأجلّها وأسناها ؛ ثمّ وجدنا فيهم ثلاثة رجال[7] بنى أعمام في زمان واحد كلّهم يُسمّى عليّاً وكلّ واحد من الثلاثة سيّد فقيه عالم عابد يصلح للرئاسة والإمامة مثل عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المُطّلب بن هاشم[8] وعليّ بن الحُسين ابن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم[9] وعليّ بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم[10] ؛ ثمّ وجدنا ثلاثة رجال[11] بني أعمام في زمان واحد كلّهم يسمّى محمّداً وكلّهم سيّد فقيه[12] عابد يصلح للرئاسة والإمامة ؛ مثل محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب بن

١) زيادة يقتضيها السياق .
٢) خط : وتعليم .
٣) خط : فهو .
٤) المقرف من الخيل ما ابوه غير عربي ؛ والمجين ما أمه غير عربية ؛ والعتيق ما هو عربي الابوين .
٥) أي : فيه .
٦) راجع كتاب فضل هاشم على عبد شمس ، في رسائل الجاحظ التي نشرها السندوبي ، ٦٧–١١٦
٧) نفس المرجع ، ١٠٨ .
٨) الملقب بالسجاد وهو ابو الخلفاء العباسيين ؛ توفي سنة ١١٧ او ١١٨ ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .
٩) الملقب بزين العابدين ؛ توفي سنة ٨٢ او ٩٤ ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .
١٠) راجع نسب قريش ، ٨٢ ؛ ومروج الذهب ، ٤ : ١٨١ ؛ الخ .
١١) راجع فضل هاشم على عبد شمس ، ١٠٨ .
١٢) خط : وفقيه .

هاشم[1] ومحمّد بن عليّ بن الحُسَيْن بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب ابن هاشم[2] ومثل محمّد بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطّلب ابن هاشم[3] ؛ وهذا من أغرب ما يتيسّأ[4] في العالم ويتّفق في الأزمنة ؛ وهذه [الخصلة] لا يشركهم فيها أحد ولا يستطيع أن يدّعيَ مثلها أحد .

ولبني هاشم [فضل] واحدة بارزة وثانية نادرة[5] يتقدّمون بها على جميع الناس . وذلك أنّا لا نعرف في جميع ملكة العرب وفي جميع ملكة العجم وفي جميع الأقاليم السبعة ملكاً واحداً مُلكُه في نِصاب نبوّة[6] وفي مغرس رسالة إلاّ في[7] بني هاشم : فإنّ مَلِكهم العبّاس بن عبد المطّلب عمّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعمّ وارث وعمّ أبٌ . ولا نعلم أمّةً تدّعي مثل هذا لملكها ؛ وهذا شيء سمعتُه من أبي عُبَيْدة[8] ومنه استملیتُ هذا المعنى ؛ ولبني هاشم مُذ ملكوا هذه الدفعة[9] دون أيّام عليّ بن أبي طالب والحُسَين بن عليّ إلى يومنا هذا مائة وستّ عشرة سنة[10] : كان أوّل بركتهم أنّ الله تعالى رفع الطواعين والسُّوتان[11] الجارف[12] ؛ فإنّهم كانوا يحصُدون حصداً بعد حصد.

ثمّ الذي تيسّأ واتّفق وخُصّ به آل أبي طالب من الغرائب والعجائب والفضائل ممّا[13] لم نجدْه في أحد سواهم ؛ وذلك أنّ أوّل هاشميٍّ هاشميٍّ الأبوين

---

١) هو ابن السجاد المذكور آنفا ، فيلقب ايضا بابي الخلائف ؛ راجع نسب قريش ، ٣٩ ؛ وفتوح البلدان للبلاذري ، ٢٨٨ ؛ ٢٩٦ ؛ وتاريخ الطبري ، الخ .

٢) الملقب بالباقر ؛ توفي سنة ١١٤ او ١١٧ او ١١٨ ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .

٣) هو محمد الاصغر قتل بالفخ ؛ راجع نسب قريش ، ٨٣ ؛ وتاريخ الطبري ، ٢ : ١٧٩ ؛ ٢٥٨ ؛ ٢٧٨ .

٤) خط : تيبا .

٥) خط : واحد مبرزة وثانيه نادرة ؛ ولعل الصواب ما اثبت .

٦) خط : واحدة .

٧) خط : من .

٨) ابو عبيدة معمر بن المثنى ، استاذ الجاحظ .

٩) يعني الدولة العباسية .

١٠) يستنتج من ذلك ان الجاحظ الف هذا الكتاب سنة ٢٤٨ .

١١) السوتان : موت يقع في الحيوان ؛ راجع فضل هاشم على عبد شمس ، ٨٠ .

١٢) الجارف : السوتان الذي يجترف المال .

١٣) خط : ما .

كان في الدنيا وُلِد لأبي طالب لأنّ أباهم[1] عبد مناف[2] — وهو أبو طالب ابن شَيْبة ؛ وهو عبد المطّلب بن هاشم ؛ وهو عمرو وهو أبو شيبة ؛ وشيبة هو عبد المطّلب وهو أبو الحارث وسيّد غير مدافَع ابن عمرو ؛ وهو هاشم بن المغيرة ؛ وهو عبد مناف — [وأمّهم فاطمة بنت أسد بن هاشم][3] ؛ ثمّ والذي نبيّنا لبني أبي طالب الأربعة[4] أنّ أربعة إخوة كان بين كلّ واحد منهم وبين أخيه في الميلاد عشر سنين سواء[5] ؛ وهذا أعجب .

ومن الغرائب التي خُصّوا بها — أعني ولد أبي طالب — أنّا لا نعلم الإذكار[6] في بلد من البلدان وفي جيل من الأجيال [إلاّ في][7] أهل خُرسان فمَن دونهم ؛ فإنّ الإذكار فيهم فاشٍ ؛ كما أنّك لا تجد من وراء بلاد مصر إلاّ مِشْناتاً[8] ثم لا ترى فيهنّ مُفْنِداً[9] ؛ بل لا ترى إلاّ التوائم ؛ ومن البنات ؛ فتياً في آل أبي طالب من الإذكار ما لم يعرفه [غيرهم][7] في قديم الدهر وحديثه ولا فيما يعُد ؛ وذلك أنّ آل أبي طالب أُحْصُوا منذ أعوام وحُصّلوا ، فكانوا قريباً من أنفيْن وثلاثمائة ؛ ثم لا يزيد عدد نسائهم على رجالهم إلاّ[10] دون العشر ؛ وهذا عجب ؛ وإن كنتَ تريد أن تتعرّف فضل البنات على البنين وفضل إناث الحيوانات على ذكورها ، فابدأ فخذْ أربعين ذراعاً عن يمينك وأربعين ذراعاً

١) الضمير عائد الى أولاد ابي طالب .
٢) وضعنا في الجدول التالي جميع الاسماء المذكورة ايضاحاً لما قال الجاحظ :

المغيرة = عبد مناف
|
هاشم = عمرو = ابو شيبة
|
شيبة = عبد المطلب = ابو الحارث .
|
ابو طالب = عبد مناف

٣) زيادة يقتضيها السياق ؛ راجع فضل هاشم ، ١٠٩ .
٤) وهم : طالب وعقيل وجعفر وعلي .
٥) راجع فضل هاشم ، ١٠٩ ؛ نسب قريش ، ٣٩ .
٦) الاذكار ولادة عدد من الذكور يفوق عدد الاناث .
٧) زيادة يقتضيها السياق .
٨) المشناث : المرأة التي تلد الاناث ان كان ذلك لها عادة .
٩) المفند او المفندة : التي تلد ولدا واحدا .
١٠) خط : لا .

عن يسارك وأربعين خلفك وأربعين أمامك . ثمّ عُدّ الرجال والنساء حتّى تعرف بما قلنا : فتعلم أنّ الله تعالى لم يُحلّل لرجل الواحد من النساء أربعاً ثم أربعاً متى وقع بين موتٌ أو طلاق . ثم كذلك للواحد[1] ما بين الواحدة من الإماء إلى ما يشاء من العدد مجموعات ومتفرّقات [إلاّ] لئلا يبقين لا ذوات أزواج . ثمّ انظر في شأن ولادات البيض وذوات الأولاد فإنّك سترى في دار خمسين دجاجة وديكاً واحداً . ومن الإبل الهجمة[2] وفحلاً واحداً ومن الحمير العانة وحماراً واحداً ؛ فلمّا حصّوا كلّ مثناث وكلّ مذكار[3] فوجدوا أنّ أبي طالب قد برعوا على الناس وفضلوهم : عرف الناس موضع الفضيلة لهم[4] والخصوصيّة [بهم] .

وفي ولد أبي طالب أيضاً أعجوبة أخرى وذلك أنّه لم يوجد قطّ في أخلافهم طفل يحبو بل يزحف زحفاً لئلاّ ينكشف منه عن شيء يسوؤه ليكون أوفر لبهائه وأدلّ على ما خُصّوا به ؛ وفيهم من الأعاجيب خصلة أخرى : وذلك أنّ عُبيد الله بن زياد قتل الحُسين في يوم عاشوراء وقتله الله يوم عاشوراء في السنة الأخرى[5] .

وقالوا: لم نعلم موضع رجل من شُجعان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان له من عدد[6] القتلى ما كان لعليّ — رضوان الله عليه — ولا كان لأحد مع ذلك من قتل الرؤساء والسادة والمشروعين والقادة ما كان لعليّ بن أبي طالب ؛ وقتلُ رئيسٍ واحد ، وإن كان دون بعض الفُرسان في الشدّة : أشدُّ ؛ فإنّ قتلَ الرئيس أردّ على المسلمين وأقوى لهم من قتل الفارس الذي هو أشدّ من ذلك السيّد ؛ وأيضاً إنّه قد جمع بين قتل الرؤساء وبين قتل

---

١) خط : الواحد .
٢) الهجمة ما بين الاربعين أو السبعين والمائة من الابل .
٣) المذكار ضد المثناث : وهي التي تلد الذكور .
٤) خط : له .
٥) قتل الحسين بكربلاء في العاشر من محرم سنة ٦١ ، قتله شيث قد بعثه عبيد الله بن زياد من الكوفة ؛ وأما عبيد الله فقد قتل في العاشر من محرم سنة ٦٧ بالقرب من الموصل في معركة وقعت بينه وبين ابراهيم بن الاشتر .
٦) خط : عشر .

الشجعان . وله عجوبة أخرى وذلك أنّه مع كثرة ما قتل وما بارز وما مشى بالسيف إلى السيف . لم يجرّح قطّ ولا جرح إنساناً إلاّ قتله ؛ ولا نعلم في الأرض متى ذُكر السبق في الإسلام والتقادم[1] فيه . ومتى ذُكر النجدة والندب والشدّة [و] العناء في[2] الإسلام . ومتى ذُكر الفقه في الدين . ومتى ذُكر الزهد في الأموال التي يتشاجر[3] الناس عليها . ومتى ذُكر الإعطاء في الدعون[4] . [أحدٌ][5] كان مذكوراً في هذه الحالات كلّها إلاّ عليّ بن أبي طالب — كرّم الله وجهه .

قالوا : وكان الحسن[6] يقول : « قد يكون الرجل عالماً وليس بعابد . وعابداً وليس بعالم . وعابداً وليس بعاقل . وعاقلاً وليس بعابد . ومسلم[7] بن يسار عالمٌ عاقلٌ عابد » ؛ فانظر أين تقع[8] خصال مسلم[9] من خصال عليّ بن أبي طالب — رضه !

ولم يكن قصدُنا في أوّل هذا الكتاب إلى ذكر[10] هاشم وقد كان قصدُنا الإخبارَ عن مكّة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ؛ ولكنّ ذكر خصال مكّة جرّ ذكر[11] خصال قريش وذكر خصال قريش جرّ ذكر[11] خصال بني هاشم ؛ فإن أحببتَ أن تعرف جملة القول في خصال بني هاشم فانظرْ في كتابي الذي[12] فرقتُ [فيه] بين خصال* بني عبد شمس وبني مخزوم [وفي كتابي الذي] فرقت [فيه] ما بين [هاشم] وعبد شمس[13] ؛ فإنّه هناك أوفر وأجمع إن شاء الله .

١) خط : والتقدم .
٢) خط : عن .
٣) خط : تشاجر .
٤) الدعون : ضربة استثنائية غير شرعية .
٥) أي : لا نعلم ... أحدا .
٦) هو الحسن البصري كما جاء في البيان والتبيين : ١ : ٢٤٢ .
٧) خط : وسليمان ؛ ومسلم بن يسار محدث بصري توفي سنة ١٠٠ ؛ راجع كتابنا في وسط الجاحظ ، ٨٧ .
٨) خط : يقع .
٩) خط : سليمان .
١٠) كذا ، والصواب إما حذف « الى » واما تصحيح اول الجملة كما يلي : ولم تكن قصدُنا...
١١) خط : ذلك .
١٢) خط : هذا الذي .
١٣) خط : بني عبد مناف وبين بني مخزوم وفرقت ما بين عبد الشمس .

[.....] قالوا : وقد تعجّب الناس من ثبات [جرد][1] قريش وجرّاة عطاياهم وأحيائهم المُؤَن[2] الغلاظ في دوام كسبهم من التجارة . وقد علموا أنّ البُخل والبَطَر[3] في الطفيف مقرون بالتجّار[4] وذلك خُلق من أخلاقهم وعلى ذلك شهد[5] أهل التَّرْقيح[6] وكسب والتدنيق[7] ؛ فكان في ثبات جودهم الغنيّ على جود الأجواد ودوم لا كسب لهم إلاّ من التجارة عجبٌ من العجب ؛ ثمّ جاء ما هو أعجب من هذا وأطم[8] . وذلك أنّا قد علمنا أنّ الروم قبل التديّن بالنصرانيّة كانت تتقصّف[9] من ملوك فارس وكانت الحروب بينهم سِجالاً ؛ فلمّا صارت لا تدين بالقتل والقتال والقَوَد[10] والقصاص ؛ اعتراهم مثلُ ما يعتري الجُبناء حتّى صاروا يتكلّفون القتال تكلّفاً ؛ ولمّا خامرتْ ضمائرَهم تلك الديانةُ وسرتْ في لحومهم ودمائهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم ؛ خرجوا من حدود الغالبين إلى أن صاروا مغلوبين ؛ وإلى[11] مثل ذلك صارت حال الغُزْغُز[12] من التُرك بعد أن كانوا أنجادَهم وحُماتَهم وكانوا يتقدّمون الخَرْلُخيّة[13] وإن كانوا في العدد أضعافَهم ؛ فلمّا دانوا بالزَّنْدَقة[14] سودين الزندقة في الكفّ والسِّلم أسوأ من دين النصارى — نقصت[15] تلك الشجاعة وذهبت تلك الشهامة ؛ وقريش بين جميع العرب دانوا بالتحسّس

١) زيدة يقتضيها السياق .
٢) خط : المين .
٣) البطر : قلة الشكر على النعمة .
٤) خط : بالتجارة .
٥) خط : شاهد .
٦) الترقيح : القيام بالمال .
٧) التدنيق كناية عن البخل والشح .
٨) أطم : اكثر .
٩) تتقصف منهم : تنتقم منهم وتقاتلهم .
١٠) القود : القصاص .
١١) لقد نشر J. Marquart هذه الفقرة وترجمها الى الالمانية في كتابه: *Osteuropäische und ostasiatische Streifzüge* ؛ ليبزك ١٩٠٣ ، ٩١–٩٢ .
١٢) خط : التغزغز ؛ والتغزغز قبيلة تركية ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .
١٣) خط : الخزلخية ؛ والخزلخية او القرلقية ايضا قبيلة تركية ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية.
١٤) الزندقة : المثنوية اي مذهب مانى ؛ وفيما يخص اعتناق قبائل تركية لهذه الديانة ؛ راجع حدود العالم : ٢٦٧–٢٦٨ . يدل تعبير الجاحظ على انه لم يكن من القسمة وانصار السلم وان لم يحارب قط .
١٥) قراءة Marquart : فنقمت ، وهو خطأ .

وتشدّدوا في الدين فتركوا الغزوَ كراهةً لسبي واستحلالِ الأموال واستحسانِ الغَصْب[1] ؛ فلمّا تركوا الغزو لم تبقَ مكسبة سوى التجارة ؛ فضربوا في البلاد إلى قَبْصَرِ الروم وإلى النَّجاشي بالحبشة وإلى المُقَوْقِس بمصر وصاروا بأجمعهم تُجّارًا خُلَّصًا[2] وبانوا بالديانة والتحسُّن فحمّسوا بني عامر بن صَعْصَعة وحمّسوا الحارث بن كعب[3] ؛ فكانوا[4] — وإن كانوا حُمْسًا — لا يتركون الغزوَ والسبيَ ووَطْءَ النساء وأخذ الأموال. فكانت نجدتُهم وإن كانت[5] أنقص : فإنّها على حال النجدة ولهم في ذلك بقيّة ؛ وتركت قريش الغزوَ بتّةً : فكانوا مع طول ترك الغزو ؛ إذا غزوا ؛ كالأسود على بَرَاثنها مع النزْي الأصيل والبصيرة النافذة ؛ أفليس من العجب أن تبقى نجدتُهم وتثبت بالتُهم ثمّ يعلون الأنجاد والأجراد ويفوقون[6] الشُجعان؟ وهاتان الأعجوبتان جليّتان[7] وقد عُلِم أن السبب [في] استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدّمهم في ذلك إنّما هو بسبب الديانة لأنّا نجد عَبيدهم ومواليَهم ونساءهم يقاتلون مثل قتالهم : ونجد السِّجِسْتانيّ وهو عَجَمي : ونجد اليَمامِيّ والتَّجرانيّ[8] والخُوزيّ وهم عَرَب : ونجد إباضيّة عُمان وهي بلاد عرب وإباضيّة تاهَرت[9] وهي بلاد عَجَم كلّهم في القتال والنجدة وثبات العزيمة والشدّة في البأس سواء ؛ فاستوت حالاتُهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم وبُلدانهم : أفما في هذا دليلٌ على أنّ الذي سوّى بينهم التديُّنُ بالقتال ؟ وضروبٌ كثيرة من هذا الفنّ ؛ وذلك كلّه مصوّرٌ في كُتُبي[10] والحمد لله ؛ وقد تجدون عموم السُخف والجُهل

---

١) خط : الغصب .
٢) خط : خلطا .
٣) يدل تكرر هذا الخطإ على ان الناسخ برىء منه ؛ انظر أعلاه ، ص ٨ ، ح ٥ .
٤) اي بنو عامر وبنو الحارث .
٥) خط : كان .
٦) خط : ويعرفون .
٧) خط : بليتان .
٨) خط : والبحراني .
٩) خط : تاهرت؛ وتاهرت مدينة قديمة كانت عاصمة خوارج المغرب الاوسط من آبادية ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .
١٠) راجع مثلا كتاب الحيوان ، ٢ : ١٠٥ .

والكذب في المواعيد والغشّ في الصناعة في الحاكة[1] : فدلّ استواء حالاتهم في ذلك على استواء عِلَلِهم ؛ ليست هناك علّة إلاّ الصناعة لأنّ الحاكة في كلّ بلد شيء واحد؛ وكذلك النخّاس وصاحب الخُلقان وبيّاع السمك. وكذلك اللاّحين وأصحاب السمّاد ؛ أوّلُهم كآخرهم وكهولُهم كشبّانهم ؛ *وكذلك قُلْ في استواء[2] الحجّامين في حُبّ النبيذ[3] .

[ذكر المدينة]

[.....] وأمر المدينة عجب وفي تُربها وتَرابها[4] وهوائها دليلٌ وشاهدٌ وبُرهانٌ على قول النبي — صلى الله عليه وسلم — « إنّها طيبة تَنفي خبَثَها وتَنصَع طِيبَها »[5] ، لأنّ مَن دخلها وأقام فيها — كائناً مَن كان من الناس — فإنّه يجد من تُربتها وحيطانها رائحةً طيّبة ليس لها اسم في الأرابيح[6] ، وبذلك السبب طاب طِيبُها والمعجونات من الطِيب فيها ؛ وكذلك العُود وجميع البخور يضاعف طِيبُها في تلك البلدة على كلّ بلدة[7] استُعمل ذلك الطيبُ بعينه فيها ؛ وكذلك صِحّاحها[8] وإبلُها[9] والأترجّ والسَّرْجَل اعني المجعول منها سُخُباً[10] للصبيان والنساء ؛ فإن ذكروا طِيب سابور[11] فإنّما طِيب سابور بطيب أرياح الرياحين [أشبه][12] وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها[13]

١) في هذه المسألة راجع مقالة R. Brunschvig في *Studia islamica* ١٩٦٢ : ٥٠ وما يليها.
٢) خط : ولكن قل استواء .
٣) يقول في الحيوان ، ٣ : ١٠٥ : وكل حجام في الارض فهو شديد الاستبشار بالنبيذ وان اختلفوا في البلدان والاجناس والاسنان .
٤) خط : ترابها .
٥) تنصع اي : تخلص؛ وفي لسان العرب (مادة نصع): المدينة كالكير تنفي ... الحديث.
٦) ارابيح : جمع جمع ريح بمعنى رائحة .
٧) خط : بلد .
٨) يقال : الفسل بالصحاح وهو الفسل بالملاب والخلوق .
٩) خط : الثلج ؛ والبلج التمر ما دام لخضر .
١٠) سخب جمع سخاب بالكسر : قلادة بلا جوهر يلبسها الصبيان .
١١) سابور مدينة واقعة بين شيراز والبحر كثيرة البساتين والازهار ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .
١٢) زيادة يقتضيها السياق .
١٣) انوار جمع نور بالفتح .

ولذلك يتردّى في زمان ويضعف في زمان. ونحن قد نتدخل دجلة[١] من[٢] نهر الأبُلّة[٣] بالأسحار فنجد من تلك الحدائق ونحن في وسط النهر مثلَ ما يجد أهلُ سابور من تلك الرائحة الطيّبة[٤] التي يشمّونها[٥] بالمدينة[٦] [إلاّ أنّ][٧] هذا الطيب خِلقةٌ فيها[٨] وجوهريّةٌ منها وموجودٌ في جميع أحوالها. وإنّ الطيب والمعجونات تُتحمّل إليها فتزداد فيها صياً. وفي[٩] قصبة الأهواز وأطاكية فإنّ الغوالي تستحيل الاستحالةَ الشديدة. ولسنا نشكّ أنّ ناساً يتساوبون المواضع التي يُسرع فيها السّرى المنقّع فيستنشقون تلك الرائحة. يُعجبون بها ويلتمسونها بقدر وارنا نحن من مواقع السّرى عندنا بالعراق. ولو كان من اسرى المعجوم ومن نرى الأفواه[١٠]. ونحن لا نشكّ أنّ الرجل الذي يأكل بالعراق أربع جرادق[١١] في مقعد واحد من المِلّياني[١٢] والمَوْصليّ أنّه لا يأكل من أقراص المدينة قُرْصَيْن. ولو كان ذلك ليغلظ فيه أو لفساد كان في حبّه وضحينه لتغيّر ذلك في التُخْتَم وسوء الاستراء ولتولّد على طول الأيّام من ذلك أوجاعٌ وفساد كثير؛ ولم يكن بها[١٣] خاعون قطّ ولا جُذام؛ وليس لبلدة من البلدان من الشُهرة في الثقه ما لهم ولرجالهم. وذكر عبد الملك بن

١) خط : دخلة.
٢) خط : في.
٣) نهر الابلة مشهور بالبصرة. كان بجانبيه بساتين وحدائق في غابر الزمان.
٤) خط : وطيبة.
٥) خط : يسوّيها.
٦) خط : المدينة.
٧) زيادة يقتضيها السياق.
٨) اي : في المدينة.
٩) خط : وهو عنه.
١٠) قالت ام سلمة : «نهانا النبي صلى الله عليه وسلم ان نعجم النوى طبخاً» أي نبالغ في طبخه حتى تنشد قوته ويؤثر فيه الطبخ تأثير من يعجمه اي يلوكه ويعضه؛ فيدل أن النوى المعجوم هو النوى المطبوخ؛ واما نوى الافواه فلعله النوى الذي لفظه القوم من افواههم؛ ومع ذلك فمن الغريب ان يقول صاحب اللسان إن النوى المعجوم هو نوى التمر ويضيف الى ذلك انه «اجود ما يكون من النوى لانه اصلب من نوى النبيذ المطبوخ»؛ ولعله قد اشتبهت عليه حقيقة الامر؛ وسياق النوى مقرونة بضمام البعير حيث انه يعضه «البعير ثم يفت بعره فيخرج منه النوى فيلفظه مرة اخرى؛ ولا يكون ذلك الا من صلابته» (لسان العرب : مادة عجم).
١١) اجردقة او اجرذقة : الرغيف الغليظ.
١٢) الملياني ضرب من الدقيق المطحون بميانة.
١٣) بها اي : بالمدينة.

مَرْوان وَرَوْحَ بن زِنباع[1] فمدحه فقال : « جمع أبو زُرعة[2] فقه [أهل] الحجاز ودَهاء [أهل] العراق وطاعة أهل الشام »[3] .

[ذكر مصر]

[.....] قال أبو الخطّاب[4] : لم يذكر الله — عزّ وجلّ — شيئاً من البلدان باسمه في القرآن كما ذكر مصر حيث يقول : ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ : أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾[5] . وقال : ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾[6] . وقال : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[7] ، وذكر مصر في القرآن بالكناية عن خاصّة اسمه ؛ فمن ذلك : ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ : امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾[8] : قال : هي مدينة مَنْف[9] وهو موضع منزل فِرْعَوْن ؛ وأخبرني شيخٌ من آل أبي طالب من ولد عليّ صحيحُ الخبر [قال : « أتيتُ][10] مَنْف دار فرعون ودُرْتُ في مجالسه ومساريه[11] وغُرَفه وصِفافه[12] ، فإذا كلّه حَجَرٌ واحد منقور ؛ فإن كانوا هَنْدَموه[13] أو أحكموا بناءه حتّى صار في المَلاسة واحداً لا يُستبان فيه مجمعُ حجرَيْن

---

١) روح بن زنباع الجذامي ، من ولاة فلسطين ايام يزيد بن معاوية ، زوجه عبد الملك ام جعفر بنت النعمان بن بشير ؛ راجع الحيوان : ١ : ٢٢٦ .
٢) ابو زرعة : كنية روح بن زنباع .
٣) راجع البيان والتبيين ، ٢ : ٨١ .
٤) أبو الخطاب حزة بن علي ، من رواة ابن عيينة وغيره ؛ يذكره الطبري والمسعودي وغيرهما .
٥) سورة يوسف ، ١٢ : ٢١ .
٦) سورة يوسف ، ١٢ : ٩٩ .
٧) سورة يونس ، ١٠ : ٨٧ .
٨) سورة يوسف ، ١٢ : ٣٠ .
٩) خط : مرو .
١٠) زيادة يقتضيها السياق .
١١) خط : وسلويه .
١٢) الصفاف جمع الصفة وهي ما يشبه البهو بثلاثة حوائط فقط .
١٣) هندموه : اتقنوه .

ولا ملتقى صخرتين فهذا عجب؛ ولئن كان جبلاً واحداً ودكّاً[1] واحداً فتفرّقه الرجال بالمناقير حتى صارت فيه تلك الخوارق. إنّ هذا لأعجب.

وفي القرآن: ﴿فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين﴾[2]؛ قال[3]: «والارض» هاهنا مصر؛ وفي هذا الموضع كلام حسن ولكنّ نكدّه مخافة أن نخرج إلى غير الباب الذي ألّفنا له هذا الكتاب. قالوا: وسمّى الله تعالى ملك مصر «العزيز»، وهو صاحب يوسف. وسمّى صاحب موسى فرعون؛ قالوا: وكان أصل عتوّ فرعون مُلكه العظيم وملكه التي لا تشبهها ملكة؛ قالوا: ومنهم مؤمن آل فرعون وهي آسية بنت مزاحم[4]؛ وقال النبي — صلى الله عليه وسلم — «سيّدات[5] نساء العالم خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم»؛ قال: ولمّا همّ فرعون بقتل موسى؛ قالت آسية: ﴿لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾[6]، وقالت: «وكيف تقتله ووالله ما يعرف الجمرة من التمرة»[7].

ومنهم السحرة الذين كانوا قد بدّوا على أهل الأرض؛ فلمّا أبصروا بالأعلام وأيقنوا بالبرهان استبصروا وتابوا توبةً ما تابها ماعز بن مالك[8] ولا أحد من العالمين، حتى قالوا لفرعون ﴿فاقض ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾[9]؛ وجاء في الحديث: «من أخرب

١) الدك: الجبل الذليل.
٢) سورة يوسف، ١٢: ٨٠.
٣) أي: ابو الخطاب.
٤) آسية بنت مزاحم: امرأة فرعون؛ راجع البيان والتبيين، ١: ٣٦؛ والمعارف لابن قتيبة، ٤٣؛ وكتب التفسير (سورة القصص، ٢٨: ٩؛ وسورة التحريم، ٦٦: ١١).
٥) خطأ: سيدة.
٦) سورة القصص، ٢٨: ٩.
٧) راجع البيان والتبيين، ١: ٣٧.
٨) ماعز بن مالك صحابي كان قد زنى فاقر على نفسه وانطلق الى الرسول يطلب اقامة الحد فرجم ثم ضربه رجل فصرعه؛ انظر تاريخ مختلف الحديث، ٢٣٨-٢٤١؛ والاصابة، رقم ٧٥٨١؛ ومسند ابن حنبل، ٥: ٢١٧؛ الخ.
٩) سورة طه، ٢٠: ٧٢-٧٣.

خزائن الله فعليه لعنة الله » ؛ قال[1] : خزائن الله هي مصر ، أما سمعتم قول يوسف : ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾[2] ؟ وقال عبد الله بن عُمَر : « والبَرَكة عشر بركات : تسع بمصر والواحدة في جميع الأرض »[3] .

[.....] وقال أهل العراق : سألنا بِطْرِيق خَرْشَنَة[4] عن خراج الروم فذكر مقداراً[5] من المال وقال : هو كذا وكذا قنطاراً ؛ فنظر بعض الوزراء فإذا خراج مصر وحدَه يضعّف على خراج بلاد الروم إذا جُمعت أبواب المال من البلاد جميعاً ؛ وزعم أبو الخطّاب أنّ أرض مصر جُبِيَتْ [في بعض الزمان] أربعةَ آلافِ[6] ألف دينار [وزعم[7] غيره أنّها جُبِيت ألفيْ ألف دينار سوى ما أوقفت عليه من الخيل والدوابّ ودَقّ الطُّرز[8] ؛ وقد علم الناس أنّ القُطن لخُرسان وأنّ الكتّان لمصر ؛ ثمّ للناس من ذلك في تفاريق البلدان ما لا يبلغ مقدارُه في بعض هذين الموضعين ؛ وربّما بلغت قيمة الحِمل من دقّ مصر الذي هو من الكتّان لا غير مائةَ ألف دينار ؛ وقراطيس مصر للمغرب ككواغيد سَمَرْقَنْد للمشرق ، وحَمير مصر موصوفة بحسن المنظَر وكَرَم المَخْبَر ، وكذلك أفراسُها إلاّ أنّ بعض البلاد يشارك مصر في عِتْق الأفراس وكرمها ؛ وتختصّ مصر بالحَمير التي لا تُخرج البلدان أمثالَها ، وكان الخلفاء لا يركبون إلاّ حمير مصر في دُورهم وبساتينهم ؛ وكان المتوكّل يصعد إلى مَنارة سُرّ مَن رأى على حمار مَريسي[9] ، ودَرَجُ تلك المنارة من خارج وأساسُها على جَريب من الأرض وطولها تسع وتسعون ذراعاً ؛ ومَريس قريةٌ بمصر .

---

١) اي : ابو الخطاب .
٢) سورة يوسف ، ١٢ : ٥٥ .
٣) جاء في حسن المحاضرة ، ١ : ٣٨ : « قال الجاحظ وغيره : عجائب الدنيا ثلاثين اعجوبة ، عشر منها بسائر البلاد.... والعشرون الباقية بمصر... » .
٤) خط : حرسنة ؛ وخرشنة بلدة ببلاد الروم قرب ملطية .
٥) خط : مقدار .
٦) خط : ألف .
٧) اخذنا هذه التكملة من اللطائف للثعالبي ، ٩٧-٩٨ .
٨) يظهر ان دق الطرز ضرب من الديباج (راجع معجم Dozy) وهو غير الدق المذكور أسفله .
٩) مريسي : من مريس ، في أعلى الصعيد .

وإليها ينسب بِشْر المَرِيسي[١] .

والثعابين لا تكون إلاّ بمصر وهي عجيبة الشأن في إهلاك بني آدم وليس لها عدوّ إلاّ النِمْس وهي إحدى عجائب الدنيا ؛ وذلك أنّها دُويبّة متحركة كأنّها قديدة : فإذا رأت الثُعبان دنتْ منه فينطوي الثعبان عليها يريد أن يعضّها فتحتشي ريحاً وتزفر زفرةً فتشدّ الثعبان قطعتيْن . وربّما قطّعته قِطَعاً ولولا النِمس لأكلت الثعابين[٢] سكّانَ مصر وهي هناك أنفع لأهلها من القنافذ لأهل سِجِسْتان[٣] .

ومن عيوب مصر أنّها لا تُمطر فإذا مُطرت كره أهلُها ذلك كَراهةً شديدة ؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي يُرْسِلُ الرِيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[٤] ، يعني المطر ؛ فهذه رحمةٌ مجلّلة لهذا الخلق وهم لها كارهون وهي لأهلها غير موافقة ولا تزكوا عليها زروعهم[٥] ... وإذا هبّت بها الريح المَريسيّة وهي الجنوب ثلاثة عشر يوماً تباعاً اشترى أهل مصر الأكفانَ والحنوط وأيقنوا بالوباء القاتل ؛ وكفاك ما نيلُ مصر عليه من خلاف جميع الأودية ونضوبه في وقت زيادة الأودية وزيادته في وقت نُقصان الأودية ؛ وليست التماسيح في شيْ من الأودية إلاّ فيه[٦] ؛ ومضرّتها معروفة بلا منفعة بوجه من الوجوه ولم يُرَ تِمساحٌ قطّ في دجلة والفُرات ولا سَيْحان ولا جَيْحان ولا نهر بَلْخ] .

[.....] ولا أعلم الشُرقة[٧] في المغرب إلاّ أكثرَ من[٨] الشرقة في المشرق ؛ إلاّ أنّ أهل المغرب إذا خرجوا[٩] لم يزيدوا على البِدْعة والضّلالة : والخارجيُّ

١) هو بشر بن غياث المريسي ، متكلم من المرجئة ، توفي سنة ٢١٨ ؛ ينسب الى درب المريس ببغداد ، لا الى مريس مصر ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .
٢) في الاصل : الثعبان .
٣) القنافذ نافعة لانها تأكل الأفاعي التي تكثر بسجستان .
٤) سورة الاعراف ، ٧ : ٥٧ .
٥) يروي هنا الثعالبي ابياتاً ماخوذة من كتاب الشعراء للعسكري .
٦) راجع المسعودي : مروج الذهب ، ١ : ٢٠٦ ؛ ويقول المسعودي في كتاب التنبيه (ص ٥) : وقد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه في الاخبار عن الأمصار وعجائب البلدان أن مخرج منهران السند والنيل من موضع واحد واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما وكون التماسيح فيهما وان سبيل زراعتهم في البلدين واحد ؛ ولا ادري كيف ذلك وقع له .
٧) الشرقة : لمعان الشمس والفتنة .
٨) خط : في .
٩) خرجوا اي تمردوا .

في المشرق لا يرضى بذلك حتى يجوزه إلى الكُفر مثل المُقنَّع[1] وسَنْفاذ[2] والاصْبَهْبَذِي[3] وبابَك[4] وهذا الضرب .

[ذكر الأهواز]

[إنّ[5] قصبة الأهواز مخصوصة بالحمّى الدائمة اللازمة التتالة للغرباء . على أنّ حُمّاها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب ؛ وأخبرنا إبراهيم ابن العبّاس[6] عن مشيخة من أهلها عن القوابل بها أنّهنّ ربّما قبلْنَ الطفل المولود فيجدنه في تلك الساعة محموماً . يعرفن ذلك ويتحدّثن به ؛ ولم أرَ بها وَجنةً حمراء لصبيّ ولا صبيّة ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك ، وإنّما وباءها وحمّاها في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمّى عن جميع البلدان ولقد قلبت[7] كلّ من نزلها إلى كثير من طبائعهم وشمائلهم] .

[.....] وقد علمنا أن لجماعة بني هاشم طابعاً[8] في وجوههم يستبين به كَرَم العِتق وكرم النِّجار[9] وليس ذلك لغيرهم ؛ ولقد كادت الأهواز تُفسد هذا المعنى على هاشميّة الأهواز لولا أنّ الله غالب على أمره ، ولقد كادت طمستْ على ذلك العِتق ومَحَتْه[10] ؛ فتُربتها خلاف تربة مدينة الرسول

١) هو المقنع الخراساني الذي خرج على المهدي سنة ١٦١ ؛ راجع تاريخ الطبري سنة ١٦١–١٦٣ ؛ والفرق بين الفرق للبغدادي ، ٢٤٣–٢٤٥ ، الخ .

٢) خط : وسيفاذ ؛ وسنباذ او سنباذ هذا احد روساء الخوميّة ، فخرج من نيسابور يطلب بدم ابي مسلم وقتل بالقرب من الري سنة ١٣٦ ؛ راجع مروج الذهب ، ٦ : ١٨٨–١٨٩ ؛ وفتوح البلدان ، ٢٩٧ ، ٣٣٩ ؛ وسياستنامه ، ٢٦٦–٢٦٨ .

٣) لم اعثر له على خبر .

٤) هو بابك الخرمي ؛ خرج على المأمون حول سنة ٢٠١ فلم يخمد الا سنة ٢٢٣ ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .

٥) هذه الزيادة عن لطائف الثعالبي غير ان النص قريب مما جاء في الحيوان ، ٤ : ١٤٠–١٤٣

٦) جاء في الحيوان (٤ : ١٤٣) : ابراهيم بن عباس بن محمد بن منصور ، ولعله ابراهيم ابن العباس بن محمد بن صول : الصولي وهو كاتب مشهور معاصر للجاحظ ؛ راجع دائرة المعارف للبستاني .

٧) خط : قبلت .

٨) خط : طائما ؛ وفي الحيوان (٤ : ١٤٠) نص قريب مما جاء في هذه الفقرة ؛ اما الثعالبي فقد نقل نص الحيوان .

٩) خط : النجار .

١٠) خط : ومحته .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك أنّ كلّ مَن تخرّق طُرق المدينة وجد رائحة طيّبة ليست من الأرابيح المعروفة الأسماء[١] .

[ذكر الكوفة]

[.....] قال زياد : « الكوفة جارية جميلة لا مال لها فهي تُخطب جمالها . والبصرة عجوز شوهاء ذات مال فهي تُخطب لمالها »[٢] .

[.....] والفرات خير من ماء النيل ؛ وأمّا دجلة فإنّ ماءها يقطع شهوة الرجال ويذهب بصهيل الخيل ؛ ولا يذهب بصهيلها إلاّ مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها ؛ وإن لم يتسم[٣] النازلون عليها أصابهم قُحول[٤] في عظامهم ويُبس في جلودهم ؛ وجميع العرب النازلين على شاطئ دجلة من بغداد إلى بَلَد[٥] لا يرعَوْن الخيل في الصيف على أواريّها[٦] على شاطئ دجلة ولا يسقونها من مائها لِمَا يُخاف عليها من العُدام[٧] وغير ذلك من الآفات ؛ وأصحاب الخيل من العِتاق والبَراذين إنّما يسقونها بسُرّ مَن رأى ممّا احتفروه[٨] من كارياتهم[٩] ولا يسقونها من ماء دجلة ؛ وذلك أنّ ماء دجلة مختلط وليس هو ماء واحد ؛ ينصبّ فيها من الزابيَيْن[١٠] والنَّهْرَوَانات[١١] وماء الفرات وغير ذلك من المياه ؛ واختلاف الطعام إذا دخل جوف الإنسان من ألوان الطبيخ والإدام غير ضار[١٢] ؛ وإن دخل جوف الإنسان من شراب مختلف كنحو الخمر

١) انظر اعلاه ، ص ١٩٤ ؛ ولقد نسخ الثعالبي بعد هذه الفقرة ما جاء في الحيوان ، ٤ : ١٤٢–١٤٣ مما يخص الجرارات ودواء الاهواز الفاسد .

٢) ينسب ياقوت (معجم البلدان ، مادة الكوفة) هذا القول الى الحجاج .

٣) يتسم : يكتوى .

٤) القحول يبس الجلد على العظم .

٥) بلد قرية على دجلة في جنوب الموصل .

٦) الاوارى جمع الآرى : محبس الدابة .

٧) العدام داء يأخذ في رؤوس الدواب .

٨) خط : احتفروها .

٩) كذا في الاصل ولم اعثر على هذه الكلمة في المعاجم العربية ، فلعلها كناية عن الآبار ؛ يعني ان تكون كارياتهم بمعنى مكرياتهم .

١٠) خط : الزانين ؛ والزابان نهران يتعبان في دجلة من الجانب الشرقي .

١١) يريد بالنهروانات ، نهر النهروان والانهار التي تجري في ناحيته .

١٢) خط : ضاره .

والسُّكَر[1] ونبيذ التمر والذاذيّ[2] كان ضارّاً ؛ وكذلك الماء لأنّه متى أُرِدَ أن يتجرّع جرعاً من الماء الحارّ لصدره[3] أو لغير ذلك فإن أعجلته أمرٌ فبرّدته بماء بارد ثم حساه ضرّه ذلك . وإن تركه حتّى يفتر ببرد الهواء[4] لم يضرّه ؛ وسبيل المشروب غير سبيل المأكول ؛ فإن كان هذا فضيلة ماتنا[5] على مياه دجلة فما ظنّك بفضله على ماء البصرة وهو ماء مختلط من ماء البحر ومن ماء المستنقع في أصول القصب والبرديّ ! قال الله تعالى: ﴿هذا عذبٌ فراتٌ وهذا ملحٌ أجاجٌ﴾[6] . والفرات أعذبها[7] عذوبة وإنّما اشتقّ الفرات لكلّ ماء عذب من فرات الكوفة .

[ذكر البصرة]

[.....] كان يقال: « الدنيا والبصرة » ؛ وقال الأحنف[8] لأهل الكوفة « نحن أعلى منكم بريّة وأكثر منكم بحريّة وأبعد منكم سريّة وأكثر منكم ذُريّة »[9] ؛ وقال الخليل بن أحمد في وصف [وادي] القصر المذكور بالبصرة (بسيط)

زُرْ وادِيَ القصرِ نِعْمَ القصرُ والوادي ... لا بُدَّ من زَوْرةٍ عن غير ميعادِ[10]

[زُرْه فليس له شيءٌ يُشاكلُه ... من منزل حاضرٍ إن شئتَ أو بادِ][11]

---

١) السكر شراب مسبل بالزبيب أو التمر .
٢) الذاذي : نبيذ التمر فيه حب الذاذي .
٣) لصدره اي: لعلاج صدره .
٤) حساه : الحوى .
٥) لعل الجاحظ يروي قول احد الكوفيين ممن يدافع عن وطنه .
٦) سورة الفرقان : ٢٥ : ٥٣ ؛ راجع ايضا سورة فاطر ، ٣٥ : ١٢ .
٧) اعذبها اى اعذب للمياه .
٨) هو الاحنف بن قيس ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية .
٩) ورد في البيان والتبيين (٢ : ٩٣): « نحن ابعد منكم سرية واعظم منكم بحرية واكثر منكم ذرية واعذى منكم برية » والصواب كما يظهر : نحن اعذى منكم برية بدلا من : اعل .
١٠) راجع الحيوان ، ٦ : ٩٩ .
١١) الزيادة عن لطائف الثعالبي ، ١٠٣ .

شَرْقَنا[1] به السَّمَكُ والطَّيْرُ[2] واقفةً[3] والظَّبْيُ والنِّمْرُ والملاّحُ واحدي[4]

ومن أتى هذا الوادي[5] ورأى[6] قصر أنس رُبَى أرضاً كالكافور[7] وتربة ثريّة[8] ورأى نبتاً يُحترش وغزالاً يتقنص[9] وسمكاً يُصطاد ما بين سحب نمل وصاحب شبكة[10] وسمع غناء ملاحٍ على سُكّانه[11] وجمّاله جمّال على بعيره[12] ؛ قالوا: وفي أعلى جبّانة البصرة موضعٌ يقال له الخُرَيز[13] يذكر الناس أنّهم لم يَرَوا قطّ هواءً أعدل ولا نسيماً أرقّ ولا ماءً أطيب منها في ذلك الموضع.

وقال جعفر بن سفيان[14] : « العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق والمِرْبَد عين البصرة وداري عين المربد » ؛ وقال أبو الحسن[15] وأبو عُبَيْدة: « بُصِّرت البصرة سنة أربع عشرة وكُوِّفت الكوفة سنة سبع عشرة »[16].

[.....] وزعم أهل الكوفة أنّ البصرة أسرعُ الأرض خَراباً وأخبثها تُراباً وأبعدُها من السماء وأسرعُها غَرَقاً[17] ؛ وسَفيض[18] مائها البحرُ ثمّ يخرج ذلك إلى البحر الأعظم: وكيف تَغرَق[19] وهم لا يستطيعون أن يُوصلوا ماء

---

١) خط : ترقى ؛ الطائف : يرقى .
٢) خط : والظلمات .
٣) الطائف : حاضرة .
٤) انظر مختلف الروايات في الحيوان ، ٦ : ٩٩ ح ٢ .
٥) خط : القصر ؛ والتصحيح عن الطائف .
٦) خط : وأتى ، والتصحيح عن الطائف .
٧) خط : كالكافورة .
٨) سقط من الطائف .
٩) الطائف : وصيادا .
١٠) السكان : الخشبة التي بها يقود الملاح السفينة .
١١) هنا ينتهي ما رواه الثعالبي عن الجاحظ .
١٢) قال البكري : هو الموضع الذي بين العقيق وأعلى المربد بالبصرة .
١٣) هو جعفر بن سفيان بن علي العباسي .
١٤) هو ابو الحسن المدائني المتوفى سنة ٢٤٠ ؛ راجع دائرة المعارف الاسلامية ، مادة المدائني .
١٥) في هذه الشكلة راجع *Militia* .
١٦) من الكلام المعزو الى علي بعد وقعة الجمل : «وايم الله لتغرقن بلدتكم حتى كاني انظر الى مسجدها كجؤجؤ سفينة » ؛ ثم قال : « بلادكم أقلّ بلاد الله تربة وأقربها من الماء وأبعدها من السماء » ، انظر شرح نهج البلاغة ، ١ : ٨٣ ، ٨٩ .
١٧) خط : وسفيض .
١٨) خط : يعرف .

النَّيْض[1] إلى حياضهم إلاّ بعد أن يرتفع ذلك الماء في انحاء[2] ثلاثين ذراعاً في كلّ ساقية بعيدا لا يُحَرَّض بعينه[3]؟ وهذه أرض بغداد في كلّ زيادة ما ينبع [من][4] الماء في أجواف قصورهم الشارعة[5] بعد إحكام المُسَنَّيات[6] التي لا يقرّى عليها إلاّ الملوك: ثمّ يبدمون الدار التي على دجلة فيكبسون[7] بها تلك السكنك ويتوقّعون الغرق في كلّ ساعة.

قال[8]: وهم يعيبون ماء البصرة: وماء البصرة رقيق قد ذهب عنه الطين والوحل المشوب بماء بغداد والكوفة لطول مُقامه بالبطيحة وقد لان وصفا ورقّ: وإن قلتم إنّ الماء الجاري أمرأ من الساكن ما فكيف يكون ساكناً مع تلك الأمواج العظام والرياح العواصف والماء المنقلب[9] من العوالي إلى السفل؟ ومع ذلك إنّه إذا صار من مخرجه إلى ناحية أذْواز[10] ونهر أبي الأسد وسائر الأنهار وإذا بعُد من مدخله إلى البصرة من الشقّ القصير جرى مُنتفضًا على[11] الصخور والحجارة فراسخ وفراسخ حتّى ينتهي إلينا: ويدلّ على صلاح مائهم كثرة دورهم وطول أعمارهم وحسن عقولهم ورقّ أكفّهم وحِذقهم لجميع الصناعات وتقدّمهم في ذلك لجميع الناس: ويُستدلّ على كرم طينهم ببياض كيزانهم وعذوبة الماء الباثت في قِلالهم وبلوْن[12] أجرّهم كأنّها سُبك من مُخّ بَيْض: وإذا رأيتَ بناءهم وبياضَ الجِصّ الأبيض بين الأجرّ الأصفر لم تجد لذلك شبهاً أقرب من التفقّة بين تضاعيف الذهب.

١) خط: النيض.
٢) خط: اخرى.
٣) في هذه العبارة بعض الغموض ولعله قد سقطت عدة كلمات.
٤) المراد: انظروا ما ينبع من الماء.
٥) الشارعة: الواقعة في شاطئ النهر.
٦) المسنّاة: السد والجرم المعقود حبس الماء.
٧) خط: فيكسنون؛ ويكبسون السكك بالانقاض لرفع مستواها، والله اعلم.
٨) قال اي صاحب البصرة.
٩) خط: المنقلب.
١٠) خط: انذار؛ ويبدو أن الجاحظ يشير الى النهر المسمى بنهر ابن عمر ونزحه من موضع اسمه اذواز بالقرب من فوهة نهر ابي الاسد الآخذ من دجلة العوراء؛ وابيع خطط البصرة لصانع احمد العلي.
١١) خط: الى.
١٢) خط: وفي لون.

فإذا كان زمان غلبة ماء البحر فإنّ مُستقاهم من العذب النُزلان النصافي النَّمير[١] في الأبدان على أقلّ من فرسخ ؛ وربّما كان أقلّ من ميل ؛ ونهر الكوفة الذي يسمّونه [العَلْقَمي][٢] إنّما هو شُعبة من أنهار الفرات وربّما جفّ حتّى لا يكون فيه مُستقىً إلاّ على رأس فرسخ وأكثر من ذلك حتّى يحفروا الآبار في بطون نهرهم وحتّى يضرّ ذلك بخُضَرهم وأشجارهم ؛ فلينظروا أيّما أضرّ وأيّما أعيَب !

وليس نهر من الأنهار التي تنصبّ[٣] في دجلة إلاّ وهو أعظم وأكبر وأعرض من موضع الجسر من نهر الكوفة ؛ وإنّما جسره سبع سفائن لا تمرّ عليه دابّة لأنّها جذوعٌ مشدّدة بلا طين وما يمشي عليه الماشي إلاّ بالجَهد ؛ فما ظنّك بالحوافر[٤] والخِفاف[٥] والأظلاف[٦] !

وعامّة الكوفة خراب ببَاب[٧] ؛ ومَن بات فيها علم[٨] أنّه في قرية من القُرى ورُسْتاق من الرساتيق بما يسمع من صياح بنات آوَى ونُباح الثعالب وأصوات السباع .

وإنّما الفرات [من] دِمِسّا[٩] وما[١٠] اتّصل بها[١١] إلى بلاد الرَّقّة[١٢] وفوق ذلك فإنّما نهرهم فالنّيل أكبر منه وأكثر ماء وأدوَم جرية[١٣] ؛ وقد تعلمون

---

١) النمير : الناجع المريء .
٢) لفظ سقط من الاصل اسم النهر ويظهر انه العلقمي وكان شعبة من شعب الفرات في القرون الوسطى .
٣) خط : ينخب .
٤) الحوافر من الحيوان : الخيل والبغال والحمير .
٥) الخفاف : الابل والنعام .
٦) الاظلاف : البقر والغنم والمعز وما اشبهها .
٧) خط : نباب ؛ ويباب إتباع .
٨) علم اي ظن وتوهم .
٩) دمسا قرية على الفرات تحت الانبار فيها قنطرة مشهورة على نهر عيسى الآخذ من الفرات الى بغداد .
١٠) خط : الى ما .
١١) خط : به .
١٢) المراد ان الفرات نهر عظيم من دمسا الى الرقة ؛ وفوق ذلك فهو صغير ؛ اما تحت دمسا فهو معلوم لانه يتشعب شعباً كثيرة وتنصب بقية مائه الى البطائح .
١٣) خط : جرة .

كثرة عدد أنهار البصرة وغلبة الماء وتطفّح الأنهار ؛ وتبقى النخلة[1] عشرين ومائة سنة وكأنّها قِدْح . وليس يُرى من قرب القرية التي يقال لها النيل[2] الى أقصى أنهار الكوفة نخلةٌ طالت شيئاً إلاّ وهي مُعوجّة كالمِنْجَل ؛ ثمّ لم تَرَ غارسَ نخلٍ قطّ في أطراف الأرض يرغب في فسيل كوفيّ[3] نعلمه بخبث مَغرسه وسوء نشوءه وفساد تُربته ولُؤم طبعه .

وليس لياني شهر رمضان في مسجدهم[4] غضارة ولا بهاء ؛ وليست[5] منارة[6] مسجدهم على صورة[7] منارة[8] البصرة ولكنّ على صورة[7] منارة[6] المكانيّة[9] واليعقوبيّة[9] ؛ ورأينا بها مسجداً[4] خراباً تأويه الكلاب والسباع وهو يُضاف إلى عليّ بن أبي طالب — رضوان الله عليه — ولو كان بالبصرة بيتٌ دخلهُ عليّ بن أبي طالب مارًا لتمسّحوا[10] به وعمّروه بأنفسهم وأموالهم .

وخبّرني مَن بات [ببابا] أنّه لم يَرَ كواكبها زاهرةً قطّ وأنّه لم يَرَها إلاّ ودونها حَنوة[11] ؛ وكأنّ في مائهم مزاجَ دُهْن ؛ وأسواقُهم تشهد على أهلها بالفَقْر ؛ وهم أشدّ بُغضاً لأهل البصرة من أهل البصرة لهم ؛ وأهل البصرة هم أحسن جواراً وأقلّ بَذَخاً وأقلّ فخراً .

ثمّ العجب من أهل بغداد وميلهم معهم وتسليمهم إيّانا في استعمال السّماد في أرضنا ولنخلنا ؛ ونحن نراهم يُسدّدون بقولهم بالعذرة[12] الإبانة صِرفاً ؛

---

١) اي : في البصرة .
٢) النيل نهر بعمل الفرات بدجلة ويجرى من اعلى بابل الى اسفل النعمانية ويسمى ايضا نيل النعمانية ؛ وفي منتصف مجريه أسس الحجاج قرية تسمى بالنيل .
٣) خط : لوفي .
٤) أي مسجد أهل الكوفة .
٥) خط : وليس .
٦) خط : منار ؛ والمنار لتعلم بيد ان المنارة : المئذنة كما جاء في اللسان .
٧) خط : صور .
٨) اي للملكية من النصارى .
٩) اليعقوبية أو اليعاقبة فرقة من النصارى وهم اتباع يعقوب البراذعي (من القرن السادس للميلاد) .
١٠) تمسحوا به ليتبركوا به .
١١) كذا في الاصل، واظفر او الضغنة الارتفاع والذهاب في الهواء، فلعله اراد بذلك ضربا من الضبابة كانها صوف قد هفا في الهواء .
١٢) خط : بعذرة .

فإذا طلع [البقل] وصار له وَرَقٌ ذَرَوْا عليه من تلك العذرة اليابسة حتى تكن[1] في خلال ذلك الورق ؛ ويريد أحدهم أن يبني داراً، فيجيء إلى مَزْبَلَة فيضرب منها لَبِناً ؛ فإن كانت داره مُطْمئِنَّة[2] ذات قَعْر ؛ حشّا[د] من تلك المزبلة التي لو وجدها أصحاب السَّيّاد عندنا[3] لباعوها بالأموال النفيسة ؛ ثمّ يَسْجُرون[4] تنانيرهم بالكُنُاحات التي فيها من كلّ شيء وبالأبعار والأحشاء[5] . وكذلك مواقد الكيران ؛ وتُستلأ ركايا دورهم عَذِرةً ؛ فلا يُصيبون لها مكاناً فيحفرون لذلك في بيوتهم آباراً حتى ربما حفر أحدهم في مجلسه وفي أنبل موضع من داره ؛ فليس ينبغي لمن كان كذلك أن يعيب البصريّين بالتسيد !

[.....] وليس في الأرض بلدة أرفق بأهلها من بلدة لا يعزّ بها النَّقْد وكلّ مَبيع بها يُسكِن[6] ؛ فالشامات وأشباهُها ؛ الدينارُ والدرهم بها عزيزان[7] والأشياء بها رخيصة لبُعد المَنْقَل وقلّة عدد مَن يبتاع فيها يخرج من أرضهم [فيقى][8] أبداً فضلٌ عن حاجاتهم ؛ والأهواز وبغداد والعسكر يكثر فيها الدراهم ويعزّ[9] فيها المَبيع لكثرة عدد الناس وعدد الدراهم ؛ وبالبصرة الأثمان مُمكِنة والمُثمّنات[10] ممكنة وكذلك الصناعات وأجور أصحاب الصناعات ؛ وما ظَنُّك ببلدة يدخلها في[11] البادئ من أيّام الصَّرّام[12] إلى بعد ذلك بأشهُر ما بين ألفي سُفُنة تَمْر أو أكثر في كلّ يوم ، لا يبيت فيها سُفَيْنة[13]

---

١) خط : يسكن .
٢) مطمئنة : منخفضة .
٣) عندنا اي بالبصرة .
٤) يسجرون او يسجرون بالتشديد : يملؤون التنور وقوداً ويحمونه .
د) الاحشاء جمع الحشّ بكسر الحاء وسكون الشاء : بعر البقر والنخيل وغيرها .
٦) يمكن اى يكون ثمنه غير مرتفع .
٧) عزيزان : نادران .
٨) يبدو انه قد سقطت من الاصل كلمة او اكثر .
٩) يعز : يغلو .
١٠) المثمن : ما غين ثمنه .
١١) كذا ، ولعل الاصح : من .
١٢) الصرام : اوان جذاذ النخل .
١٣) خط : سفينة

واحدة . فإن باتت فإنّما صاحبها هو الذي يُبيتها لأنّه لو كان حظّ في كلّ ألف رِطْل قيراطاً لانتُسِف اتساناً[1] .

ولو أنّ رجلاً ابتنى داراً يتمسّبها ويكسّلها ببغداد أو بالكوفة أو بالأهواز أو في[2] موضع من هذه المواضع لبلغت نفقتُها مائة ألف درهم ؛ فإنّ البصريّ إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفاً ؛ لأنّ الدار إنّما يتمّ بناؤها بالطين والتّبن والآجُرّ والجِصّ والأجذاع والساج والخشب والحديد والعُشّار وكلّ هذا يُمكن بالبصرة على الشطر ممّا يمكن في غيرها ؛ وهذا معروف . ولم نرَ بلدة قطّ تكون[3] أسعارها ممكنة[4] مع كثرة الجماجم بها إلاّ البصرة : طعامُهم أجوَد الطعام وسِعْرهم أرخص الأسعار وتمرهم أكثر التمور وربْع دِبْسِهم أكثر وعلى طول الزمان أصبر ببقاء تمر الشّهريز[5] عشرين سنة ؛ ثمّ بعد ذلك يُخلط بغيره فيجيء له الدبس الكثير والعذب الحلو والخاثر[6] القويّ ؛ ومَن يطمع من جميع أهل النخل أن يبيع قَسيلةً بسبعين ديناراً أو الجُونةَ بمائة دينار أو جريباً بألف دينار غيرُ أهل البصرة ؟

[.....] ولأهل البصرة المدّ والجزرُ على حساب مَنازل القمر ؛ لا يغادران من ذلك شيئاً ؛* يأتيهم الماء حتّى يقف على أبوابهم ؛ فإن شاؤوا أذنوا له وإن شاؤوا حجّبوه[7] ؛ ومن العجب لقوم يعيون البصرة تقرُب البحر والبطيحة ولو اجتهد أعلمُ الناس وأنطقُ الناس أن يجمع في كتاب واحد منافعَ هذه البطيحة وهذه الأجمة لَمَا قدر عليها ؛ قال زياد : « قَصَبةُ خير من نخلة » وبحقّ أقول : لقد جهدتُ جهدي أن أجمع منافع القصب ومرافقه وأجناسه وجميع تصرُّفه . وما يجيء منه فما قدرتُ عليه حتّى قطعتُه وأنا مُعترفٌ بالعجز مستسلمٌ له .

١) انتسف : اقتلع ، ولعله يريد بالاتساف الافلاس ؛ فيفهم من ذلك ان الربح كان قليلا.
٢) خط : وفي .
٣) خط : يكون .
٤) خط : تكن .
٥) الشهريز نوع من التمر موصوف .
٦) الخاثر : الذي يتحبب .
٧) في لطائف الثعالبي (١٠٣) : ما مثله يقوم ياتيهم الماء صباحاً ومساء فان شاؤوا أذنوا له وان شاؤوا حجبوه .

فأمّا بحرنا هذا فقد طمّ على كلّ بحر وأوفى عليه لأنّ كلّ بحر في الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئاً إلاّ [وجعله في] بحرنا[1] هذا الموصول ببحر الخزر إلى ما لا يُذكر[2] : وأنت تسمع بملوحة ماء البحر وتستقبحه وتُزري عليه . والبحر هو الذي يخلق الله تعالى منه الدُّرّ الذي يبعث الواحدة منه بخمسين ألف دينار : ويخلق في جوفه العنبر وقد تعرفون قدر العنبر : فشيء يولد هذين الجوهرين كيف يُحقر ؟

ولو أنّا أخذنا خصال هذه الأجمة وما عضّتنا من شأنها فقذفنا بها في زاوية من زوايا بحرنا هذا لَفضلت حتّى لا نجد ذا حِسّ ؛ وهما[3] لنا خالصان دونكم وليس يصل إليكم منهما شيءٌ إلاّ بسببنا* وتعديتنا [ما] فضّل عنّا[4] .

قال بعض خطّابنا[5] : « نحن أكرم بلاداً وأوسع سواداً[6] وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً وأكثر خراجاً ، لأنّ خراج العراق مائةُ ألف ألف واثنا[7] عشر ألف ألف . وخراج البصرة من ذلك ستّون ألف ألف وخراج الكوفة خمسون ألف ألف .

[ذكر الحيرة]

[.....] ورأيتُ الحيرة البيضاء وما جعلها[8] اللهُ بيضاء : وما رأيت فيها داراً تُذكر[9] إلاّ دارَ عَوْن النصرانيّ العبّاديّ[10] : ورأيت التُّربة التي بينها وبين قَعْبة الكوفة ورأيت لون الأرض فإذا هو أكهبُ كثير الحَصى خشن

١) خط : إلا بحرنا : وليس من المعقول ان يبقي الجاحظ جميع الخيرات من البحار الاخرى.
٢) خط : تذكر ؛ يعني ما لا يذكر من البلدان .
٣) وهما اي الاجمة والبحر .
٤) خط : وتعدينا فضل فنا .
٥) هو ابو بكر الهذلي، انظر الخبر بلفظ آخر في البيان والتبيين، ١ : ٣٥٧ و٢ : ٩٤ .
٦) خط : سودا .
٧) خط : واثنى .
٨) خط : جعله .
٩) خط : يذكر .
١٠) لم أجد له خبرا .

لمس[1] ، والحيرة أرض باردة في الشتاء ، وفي الصيف ينزعون ستور بيوتهم مخافة إحراق السباتم لها[2] .

[ذكر دمشق][3]

[قال بعض السلف : ما يجوز أن يكون أحد أشدّ شوقاً إلى الجنّة من أهل دمشق لِمَا يرونه من حسن مسجدهم وهو مبنيّ على الأعمدة الرُخام مبنيّين الطبقة التحتانية أعمدة كبار والتي فوقها صغار . في خلال ذلك صورة كلّ مدينة وشجرة في الدنيا بالفُسَيْفِساء الذهب والأخضر والأصفر وفي قبيلة القبلة المعروفة بقبّة النَسْر ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها ولها ثلاث مناثر[4] إحداها وهي الكبرى كانت دَيْدَباناً[5] للروم وأقرّت على ما كانت عليه وصُيّرت منارة . ويقال في الأخبار أن عيسى عم ينزل من السماء عليها] .

[ذكر اليمن][6]

[من خصائص اليمن : السيوف والبرود والقرود والزرافة وهي التي يقال لها بالفارسيّة أُشْتُرگاوپلنگ أي: فيها شبهٌ من الجمل والثور والنمر[7] ؛ وكان يقال إن السيف إذا كان من قلع[8] الهند وطبع باليمن فناهيك به ؛ وكان الأصمعيّ يقول : أربعة قد ملأت الدنيا ولا تكون إلاّ باليمن : الوَرْس والكُنْدُر[9] والخيطر[10] والعقيق] .

---

١) كذا في الاصل ، والاصح : هي كبياه اللين كثيرة الخ .
٢) هنا تنتهي النصوص المجموعة في مخطوطة لندن .
٣) قال ياقوت في معجم البلدان (مادة دمشق) : وحكى الجاحظ في كتاب البلدان : قال : قال بعض السلف الخ ، غير اننا لا نعرف بالضبط منتهى ما رواه ياقوت عن الجاحظ .
٤) في الاصل : مناير .
٥) الديدبان : الرقيب وبرج الرقابة .
٦) لطائف الثعالبي ، ١٠٢ .
٧) في الاصل : النمل .
٨) قلع او قلعة اسم عربي لموضع بالهند يسمى كده ، واليه تنسب السيوف القلعية .
٩) الكندر : ضرب من اللبان الذكر .
١٠) الخطر : نبات يخضب به .

[ذكر البحرين][1]

[من أقام بالبحرين مدّة ربّا ضحاله وانتفخ بطنه وجمع أهلها [حتى] أن فيهم بُرَصًا ؛ مَن نَضَحَه وجعله نبيذًا ثم شربه وعليه ثوب أبيض صبغه حمرته حتى كأنّه ثوب لاذ] .

ملحق

١ ــ قال المقدّسي[2] :

قال عبد الرحمن ابن أخي الأصمعيّ : دخلت على الجاحظ فقلت : أفتني في البلدان فائدة ــ قال : نعم . الأمصار عشرة : المروّة[3] ببغداد ، والنصاحة بالكوفة ، والصنعة[4] بالبصرة ، والتجارة بمصر ، والغدر بالريّ ، [والحسد بهراة][5] ، والجفاء بنيسابور ، والبخل بمرو ، والصّلف[6] ببلخ ، والخرقة[7] بسمرقند .

٢ ــ قال ياقوت[8] :

بالبصرة ثلاث اعجوبات ليست في غيرها من البلدان ، منها أنّ عدد المدّ والجزر في جميع الدهر شيء واحد ، فيقبل عند حاجتهم اليه ويرتدّ عند استغنائهم عنه ثم لا يبطئ عنها إلاّ بقدر هضمها واستمرائها وجمامها واستراحتها لا يقتلها عطشاً ولا غرقاً ولا يغبّها ظمأ ولا عطشاً يجيء على حساب معلوم وتدبير منظوم وحدود ثابتة وعادة قائمة يزيدها التمر في امتلائه كما يزيدها في نقصانه فلا يخفى على أهل العلاّت يتخلفون ومتى يذهبون ويرجعون بعد أن

---

١) نطائف الثعالبي ، ١٣٠–١٣١ .
٢) احسن التقاسيم ، طبعة De Goeje ، ٣٣ ؛ راجع ايضا تاريخ دمشق لابن عساكر في مجلة المجمع العلمي العربي ، ١٩٢٩ ، ٢١٤ .
٣) ابن عساكر : التخنيث .
٤) ابن عساكر : الصناعة .
٥) التكملة من ابن عساكر .
٦) ابن عساكر : المروة .
٧) ابن عساكر : الصلف .
٨) معجم البلدان ، مادة البصرة .

يعرفوا مرضع التمر وكم مضى من الشهر فهي آية وأعجوبة ومفخر واحدوثة لا يخافون الخل ولا يخشون الخطة .

والاعجوبة الثانية ادّعاء أهل أنطاكية وأهل حمص وجميع بلاد الشرعة الطلسمات وهي بدون ما لأهل البصرة وذلك أن لو التمست في جميع بيادرها وربُطها المعرَّدة وغيرها على نخلها في جميع معاصر دهرها ان تُصيب ذبابة واحدة لما وجدتها إلاّ في الشرط ولو أن معصرة دون الغيط أو تمرة منبوذة دون المساة لما استبنتها من كثرة الذبان .

والاعجوبة الثالثة ان الغربان القواطع في الخريف يجيء منها ما يسوّد جميع نخل البصرة واشجارها حتى لا يُرى غصن واحد الا وقد تأطر بكثرة ما عليه منها ولا كَرَبة غليظة الا وقد كادت أن تتدقّ لكثرة ما ركبها منها ثم لم يوجد في جميع الدهر غراب واحد ساقط الا على نخلة مصرومة ولم يبقّ منها عذق واحد ومناقير الغربان معاولُ وتمر الاعذاق في ذلك الإبّان غير منّاسك فلو خلاها الله تعالى ولم يمسكها بلطفه لاكتفى كلّ عذق منها بنَقْرة واحدة حتى لم يبقّ عليها الا اليسير ثم هي في ذلك تنتظر ان تُصرم فاذا اتى الصرام على آخرها عذقاً رايتها سوداء ثم تخللت أصول الكرب فلا تدع حَشَفَةً إلاّ استخرجتها فسبحان من قدّر لهم ذلك وأراهم هذه الاعجوبة .